

عِلْمُ الدِّفَاعِيَّاتِ

المحاضرة ١٣: اللاهوت الطبيعي، الجزء ٢

أ.ر. سي. سبرول

نُتَابِعُ الْآنَ حَدِيثَنَا عَنْ مَفْهُومِ اللَّاهُوتِ الطَّبِيعِيِّ وَعَلَاقَتِهِ بِالْإِعْلَانِ الْعَامِّ. وَكَمَا ذَكَرْتُ فِي هَذَا الْجُزْءِ مِنَ الدِّرَاسَةِ، إِنَّ اللَّاهُوتَ الطَّبِيعِيِّ، مَعَ أَنَّ بُولْسَ عَلَّمَهُ فِي رُومِيَّةِ الْأَصْحَاحِ الْأَوَّلِ، وَالْقِدِّيسَ أَوْغُسْطِينُوسَ شَرَحَهُ بِالتَّفْصِيلِ فِي فِتْرَةٍ مُبَكَّرَةٍ، هُوَ مُتَّصِلٌ بِشَكْلٍ يَكَادُ يَكُونُ حَضْرِيًّا بِلاهوتِ ثُومَا الْأُكُوِينِيِّ. وَكثيرون، وَلَا سِيَّما مِنَ الْبِرُوتِسْتَانْتِيَّينَ، لَدَيْهِمْ نُفُورٌ أَوْ تَحْفُظٌ عَلَى اللَّاهُوتِ الطَّبِيعِيِّ. فَهُمْ يَعْتَبِرُونَهُ كَأَثُولِيكِيًّا بِالطَّبِيعَةِ، وَبِالتَّالِي مُتَعَارِضًا مَعَ الْبِرُوتِسْتَانْتِيَّةِ. لَكِنِّي اخْتَلَفْتُ مَعَ هَذَا الرَّأْيِ، وَأَرَى أَيْضًا أَنَّ الْقِدِّيسَ ثُومَا تَعَرَّضَ لِهُجُومٍ عَنيفٍ فِي الْقَرْنِ الْعِشْرِينَ بِسَبَبِ إِسْهَامِهِ، السَّلْبِيِّ بِصِفَةِ خَاصَّةٍ، فِي الْمَشْكِلاتِ الَّتِي نُوَاجِهُهَا مَعَ الْفَلَسَفَةِ الْعِلْمَانِيَّةِ الْيَوْمِ. كُنْتُ أَعْتَبِرُ فِرْدِينَانَ شيفِر (Francis Schaeffer) صَدِيقًا مُقَرَّبًا جِدًّا لِي. وَقَدْ فَعَلْنَا الْكَثِيرَ مَعًا. وَكَانَ لَهُ تَأْثِيرٌ صَخْمٌ عَلَيَّ. وَكُنَّا مُتَّفَقِينَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ تَقْرِيبًا فِي اللَّاهُوتِ وَالْفَلَسَفَةِ. لَكِنَّ الْأَمْرَ الْوَحِيدَ الَّذِي اخْتَلَفْنَا حَوْلَهُ هُوَ تَقْسِيمُهُ لِثُومَا الْأُكُوِينِيِّ، لِأَنَّ د. شيفِرَ صَرَّحَ مِرَارًا بِأَنَّ الْقِدِّيسَ ثُومَا الْأُكُوِينِيِّ هُوَ مَنْ فَصَلَ بَيْنَ الطَّبِيعَةِ وَالتَّعَمَّةِ.

أَوْدُ الْيَوْمِ أَنَّ أَوْصَحَ ذَلِكَ قَلِيلًا. فَالْفِكْرَةُ الَّتِي تَحَدَّثُ عَنْهَا شيفِرُ هِيَ أَنَّ التَّعَمَّةَ، أَوْ مَا هُوَ فَائِقٌ لِلطَّبِيعَةِ، هُوَ بِالْأَعْلَى، وَالطَّبِيعَةُ أَسْفَلُهُ، وَبَيْنَهُمَا حَاجِرٌ، بِحَيْثُ يَكُونُ الْعَالَمُ الْفَائِقُ لِلطَّبِيعَةِ مُفْصَلًا عَنِ عَالَمِ الطَّبِيعَةِ. وَلِذَا، يَعْتَبِرُ الْمَنْطِقُ وَالْإِيمَانُ مُتَعَارِضَيْنِ - أَوْ مَا هُوَ طَبِيعِيٌّ وَمَا هُوَ فَائِقٌ لِلطَّبِيعَةِ، أَوْ التَّعَمَّةُ وَالطَّبِيعَةُ، إِلَى آخِرِهِ. وَجَاءَ دِفَاعِي عَنِ الْقِدِّيسِ ثُومَا الْأُكُوِينِيِّ كَالَّتَالِي: أَنَّ مَا لَمْ يَخْطُرْ قَطُّ عَلَى بَالِ الْقِدِّيسِ ثُومَا فِيمَا كَانَ يَكْتُبُ كِتَابِيهِ - "Summa Contra Gentiles"، وَ"Summa Theologiae" - هَذَيْنِ الْمُؤَلَّفَيْنِ الرَّائِعَيْنِ فِي عِلْمِ اللَّاهُوتِ وَالدِّفَاعِيَّاتِ - هُوَ أَنَّهُ يَفْصَلُ بَيْنَ الطَّبِيعَةِ وَالتَّعَمَّةِ. بَلْ فِي الْوَاقِعِ، مَا حَاوَلَ فَعَلَهُ فِي بَحْثِهِ الْفَلَسَفِيِّ وَدِفَاعِهِ عَنِ الْمَسِيحِيَّةِ هُوَ إِظْهَارُ الْوَحْدَةِ التَّامَّةِ بَيْنَ الطَّبِيعَةِ وَالتَّعَمَّةِ. وَلِذَا، أَعْتَقِدُ أَنَّ اتِّهَامَهُ بِالْفَصْلِ بَيْنَهُمَا يَنْبَغُ عَنْ سُوءِ فَهْمٍ كَبِيرٍ لِتَعْلِيمِهِ الْفِعْلِيِّ وَدَوَافِعِهِ. وَكَيْ نَفْهَمَ الْأُكُوِينِيِّ، أَعْتَقِدُ أَنَّنا يَجِبُ أَنْ نَنْظُرَ السُّؤَالَ الْمَحْورِيَّ التَّالِي: مَا الْمُسْكِلةُ الَّتِي كَانَ ثُومَا الْأُكُوِينِيُّ يُحَاوِلُ حَلَّهَا؟ كَيْ نُجِيبَ عَنْ هَذَا السُّؤَالَ، عَلَيْنَا فَحْصُ الطُّرُوفِ التَّارِيخِيَّةِ الَّتِي عَمِلَ فِي ظِلِّهَا كَدِفَاعِيٍّ مَسِيحِيٍّ.

كَتَبَ الْقِدِّيسُ ثُومَا الْأُكُوِينِيُّ فِي فِتْرَةٍ كَانَ أَكْبَرُ تَهْدِيدٍ تَعَرَّضَ لَهُ الْكَنِيسَةُ فِيهَا هُوَ اجْتِيَاخُ الدِّينِ الْإِسْلَامِيِّ. كَانَ الْفِكْرُ الْإِسْلَامِيُّ يَتَقَدَّمُ فِي تِلْكَ الْمَرْحَلَةِ مِنَ التَّارِيخِ - أَيَّ فِي الْعُصُورِ الْوُسْطَى - عَلَى يَدِ بَعْضِ الْفَلَسَفَةِ الْمُسْلِمِينَ الْمُؤَثِّرِينَ وَالْقَدِيرِينَ. طَرَحَ هَؤُلَاءِ الْفَلَسَفَةَ فَلَسَفَةً تُسَمَّى بِالْأَرِسْطِيَّةِ التَّكَامُلِيَّةِ - الْأَرِسْطِيَّةِ التَّكَامُلِيَّةِ. قَدْ بَدَدُوا هَذَا مُعَقَّدًا قَلِيلًا بِالنَّسْبَةِ إِلَيْنَا، لَكِنَّ حِينَ نَدْمُجُ شَيْئًا مَا، نَرَى أَنَّهُ مُتَّكِمٌ مَعَ أَشْيَاءٍ أُخْرَى. وَلِذَا، فَإِنَّ ابْنَ رُشْدٍ وَابْنَ

سينا، بصفتيها اثنتين من الفلاسفة العرب، حاولا التوفيق أو الجمع بين الفكر الإسلامي من ناحية وفلسفة أرسطو من ناحية أخرى، في محاولة للدمج بين أرسطو والإسلام. ومن هنا، سمي هؤلاء بالأرسطيين التكامليين. وإحدى الفرضيات الأساسية التي أيدها بحماس تُسمى: "نظريّة الحقيقة المزدوجة" - نظريّة الحقيقة المزدوجة.

سأخصص الآن بعض الوقت لدراسة ذلك، ليس فقط بسبب اهتمامنا بالجذالات التاريخية الماضية، وإنما لأنّ ما كان الأكويني يصارع معه في أيامه، مع الفلاسفة المسلمين، كثير الشبه بما نواجهه في عالم الفكر المعاصر. علّمت نظريّة الحقيقة المزدوجة ببساطة أنّه يمكن لأمر ما أن يكون صحيحاً فلسفياً وخاطئاً دينياً في الآن ذاته. أو على التّقيض، يمكن أن يكون صحيحاً دينياً وخاطئاً فلسفياً. بتعبير آخر، يمكن للشئ أن يكون صحيحاً علمياً وخاطئاً لاهوتياً، أو صحيحاً لاهوتياً وخاطئاً علمياً.

وإذا أردت ترجمة هذه الفكرة إلى لغتنا المعاصرة، ستكون كالتالي: نمة أناس في هذا العالم يؤمنون بالتطور الكبير، وبأنّ الجنس البشري والكون وجدنا نتيجة تصادم غير مبرر للدّرات، وبأنّ الإنسان جاء من الطين نتيجة مصادفة كونية، دون أن تكون له غاية محدّدة، وبأنّ مصيره الفناء. وهذا يجعل أصل البشر ومصيرهم بلا معنى.

أما الإيمان المسيحي - أو اليهودي أو الإسلامي - فيعلم بأننا نتاج العمل المتعمد لكائن كلي الوجود وسرمدّي ودائي الوجود؛ وبأنّ الله، بحكمته وقدرته، تعمّد خلق البشر على صورته لغرض أبديّ. هذان الرأيان عن أصل البشر ومصيرهم ومعنى وجودهم - لست أظن أننا نستطيع أن نجد رأيين أشدّ تعارضاً منهما. لكن لو تبنينا اليوم نظريّة الحقيقة المزدوجة، سيبدو الأمر كالتالي: كمسيحي، سأؤمن يوم الأحد بالخلق الإلهي للكون والجنس البشري، وبأنني مخلوق على صورة الله، وبأنني وُجدت نتيجة عمله المتعمد. ثمّ في أيام الإثنين، والثلاثاء، والأربعاء، والخميس، والجمعة، والسبت، سأؤمن بأنني نتاج مصادفة كونية جاءت من الطين، وبأنني جرثومة ناضجة، عديمة الأهمية تماماً. وإيماني بكلا الأمرين يتوقّف على أيام الأسبوع.

قالت نظريّة الحقيقة المزدوجة التي قدّمها الفلاسفة المسلمون إنّنا نستطيع أن نؤمن بالخلق من جهة الإيمان واللاهوت، وفي الوقت ذاته، نرفضه كعلماء. وبحسب الزاوية التي ننظر منها، يكون كلا المنظورين صحيحاً. هذا هو المقصود بالحقيقة المزدوجة. فمع أنّ الرأيين متضاربين تماماً فلسفياً، ولا يمكن التوفيق بينهما، غير أنّ كليهما صحيح، بحسب الزاوية التي ننظر منها إلى الأمر، سواءً علمياً أو من منظور الإيمان أو الدين.

هذه النسبية البحتة، التي هدّدت المسيحية والعلم في ذلك العصر، هي التي قدّم ضدها القديس توما دفاعه عن اللاهوت الطبيعي، كي يدحض نسبية نظريّة الحقيقة المزدوجة. وكى يواجه هذه المشكلة، ميّز بين الطبيعة والتعمّة؛

أَوْ بِتَعْبِيرٍ آخَرَ، بَيْنَ الْمُنْطِقِ وَالْإِيمَانِ، أَوْ بَيْنَ الدِّينِ وَالْعِلْمِ. وَالتَّمْيِيزُ بَيْنَ أَمْرَيْنِ يَخْتَلِفُ تَمَامًا عَنِ الْفَصْلِ بَيْنَهُمَا. أَقُولُ لِظُلَامِي فِي كَلْبِيَّةِ اللَّاهُوتِ إِنَّ إِحْدَى أَهَمِّ الْمُقَارَنَاتِ الَّتِي سَيَتَعَلَّمُونَهَا كَطَّلَابٍ لَاهُوتٍ هِيَ التَّمْيِيزُ بَيْنَ التَّمْيِيزِ وَالْفَصْلِ. وَكَمَا ذَكَرْتُ مِرَارًا فِي بَرْنَايَا الإِذَاعِي، إِذَا مَيَّزْتُ بَيْنَ جَسَدِكَ وَنَفْسِكَ، لَا أَكُونُ قَدْ أَحَقْتُ بِكَ أَيَّ ضَرَرٍ. لَكِنْ إِذَا فَصَلْتُ بَيْنَ جَسَدِكَ وَنَفْسِكَ، أَكُونُ قَدْ قَتَلْتُكَ. وَلِذَا، أَرْجُو أَنْ نُدْرِكَ وَجُودَ فَرْقٍ وَاضِحٍ بَيْنَ التَّمْيِيزِ وَالْفَصْلِ.

قَالَ الأَكُوْبِيُّ إِنَّكَ تَسْتَطِيعُ، بَلْ وَيَنْبَغِي، أَنْ تُمَيِّزَ بَيْنَ الطَّبِيعَةِ وَالتَّعْمَةِ. وَبِذَلِكَ التَّمْيِيزِ بَيْنَ الطَّبِيعَةِ وَالتَّعْمَةِ قَصَدَ الآتِي: أَنَّهُ تَمَّةٌ أُمُورٌ مُعَيَّنَةٌ يُمَكِّنُ تَعَلُّمَهَا مِنَ الطَّبِيعَةِ، وَلَا يُمَكِّنُ تَعَلُّمَهَا مِنَ التَّعْمَةِ. وَقَصَدَ بِذَلِكَ أَنَّهُ تَمَّةٌ حَقَائِقُ مُعَيَّنَةٌ نَكْتَشِفُهَا بِدِرَاسَةِ هَذَا الْعَالَمِ، وَالبَحْثِ فِي مَجَالِ الْعِلْمِ. وَأَنَّنَا نَسْتَطِيعُ أَنْ نَعْرِفَ أُمُورًا عَنْ طَرِيقِ دِرَاسَةِ الْعَالَمِ مِنْ حَوْلِنَا لِنَعْرِفَهَا البَتَّةَ بِقِرَاءَةِ الْكِتَابِ الْمُقَدَّسِ. فَالْكِتَابُ الْمُقَدَّسُ لَا يُعَلِّمُنَا شَيْئًا عَنِ الدَّوْرَةِ الدَّمَوِيَّةِ فِي جِسْمِ الْإِنْسَانِ. وَلَا يُعَلِّمُنَا شَيْئًا عَنِ عِلْمِ الْأَحْيَاءِ الْجُزْبِيَّةِ. فَهَذِهِ أُمُورٌ نَكْتَشِفُهَا بِالدِّرَاسَةِ الْمُتَمَعِّنَةِ لِلْعَالَمِ مِنْ حَوْلِنَا، أَيَّ بِدِرَاسَةِ الطَّبِيعَةِ، الَّتِي يَنْتُجُ عَنْهَا أُمُورٌ لَا نَسْتَطِيعُ مَعْرِفَتَهَا مِنَ الْكِتَابِ الْمُقَدَّسِ.

فِي الْوَقْتِ ذَاتِهِ، تَمَّةٌ أُمُورٌ نَعْرِفُهَا مِنَ التَّعْمَةِ أَوْ مِنَ الْكِتَابِ الْمُقَدَّسِ لِنَعْرِفَهَا البَتَّةَ فِي الْمُخْتَبَرِ. يُمَكِّنُكَ أَنْ تَدْرَسَ الطَّبِيعَةَ قَدْرَ مَا تَشَاءُ، وَلَنْ تَتَوَصَّلَ البَتَّةَ إِلَى مَعْرِفَةِ وَسِيلَةِ اللَّهِ لِلخَلَاصِ. فَإِنَّا نَعْرِفُ ذَلِكَ مِنْ خِلَالِ إِعْلَانِهِ فِي الْكِتَابِ الْمُقَدَّسِ. فَهَذَا مُحتَوَى مِنَ المَعْرِفَةِ مُتَوَفَّرٍ فِي الْكِتَابِ الْمُقَدَّسِ، وَغَيْرُ مُتَوَفَّرٍ فِي الْمُخْتَبَرِ الْعِلْمِيِّ. أَرَأَيْتُمْ إِذَنْ كَيْفَ مَيَّزُ هُنَا بَيْنَ مَا يُمَكِّنُ مَعْرِفَتَهُ بِدِرَاسَةِ الطَّبِيعَةِ وَحَدَّهَا، وَمَا يُمَكِّنُ مَعْرِفَتَهُ بِدِرَاسَةِ الْكِتَابِ الْمُقَدَّسِ؟

لَكِنَّ الفِئَةَ الثَّالِثَةَ هِيَ الَّتِي أَثِيرَ حَوْلَهَا كَثِيرٌ مِنَ الجِدَلِ. قَالَ الأَكُوْبِيُّ إِنَّهُ بِالإِضَافَةِ إِلَى المَعْرِفَةِ الَّتِي يُمَكِّنُ اكْتِسَابَهَا بِدِرَاسَةِ الطَّبِيعَةِ، وَتِلْكَ الَّتِي يُمَكِّنُ اكْتِسَابَهَا مِنَ الْكِتَابِ الْمُقَدَّسِ، تَمَّةٌ فِئَةٌ ثَالِثَةٌ دَعَاها "أَرْتِيكُولُوسُ ميكَسْتُوسُ" (articulus mixtus)، وَمَعْنَاهَا "المُحتَوَى المُختَلِطُ". يُقصدُ بِالمُحتَوَى المُختَلِطِ تِلْكَ الحَقَائِقُ الَّتِي يُمَكِّنُ مَعْرِفَتَهَا أَوْ تَعَلُّمَهَا سَوَاءً مِنَ الْكِتَابِ الْمُقَدَّسِ أَوْ مِنْ دِرَاسَةِ الطَّبِيعَةِ. وَأَبْرَزُ تِلْكَ الحَقَائِقُ الَّتِي يُمَكِّنُ مَعْرِفَتَهَا سَوَاءً بِدِرَاسَةِ الطَّبِيعَةِ أَوْ بِدِرَاسَةِ الْكِتَابِ الْمُقَدَّسِ هِيَ وَجُودُ اللَّهِ. بِتَعْبِيرٍ آخَرَ، قَالَ الأَكُوْبِيُّ إِنَّكَ لَسْتَ مُضْطَرًّا أَنْ تَقْرَأَ الْكِتَابَ الْمُقَدَّسَ لِتَعْرِفَ أَنَّ اللَّهَ مَوْجُودٌ. وَلِمَاذَا قَالَ ذَلِكَ بِرَأْيِكُمْ؟ لِأَنَّهُ كَانَ مُؤَيَّدًا لِلَاهُوتِ الطَّبِيعِيِّ. وَقَالَ إِنَّ الْكِتَابَ الْمُقَدَّسَ نَفْسَهُ يُعَلِّمُنَا عَنْ وَجُودِ وَسِيلَةٍ أُخْرَى نَعْرِفُ بِهَا أَنَّ اللَّهَ مَوْجُودٌ، وَهِيَ دِرَاسَةُ الطَّبِيعَةِ. وَبِالمِثْلِ، يُمَكِّنُ قَطْعًا مَعْرِفَةَ أَنَّ اللَّهَ مَوْجُودٌ مِنْ خِلَالِ فَتْحِ الْكِتَابِ الْمُقَدَّسِ.

مَاذَا يَحْدُثُ حِينَ نَفْتَحُ أُولَى صَفْحَاتِ الْكِتَابِ الْمُقَدَّسِ؟ تَقُولُ الجُمْلَةُ الأُولَى فِي الْكِتَابِ الْمُقَدَّسِ: "فِي البَدْءِ خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ". يُضَحِّمُ بَعْضُ الدَّفَاعِيِّينَ مِنْ هَذَا الأَمْرِ قَائِلِينَ: "انظُرْ إِلَى ذَلِكَ! مُنذُ أُولَى صَفْحَاتِ الْكِتَابِ الْمُقَدَّسِ، اللَّهُ مُعْلَنٌ، وَظَاهِرٌ، وَوُجُودُهُ مُسَلَّمٌ بِهِ. فَلَمْ يُحَاوَلْ كَاتِبُ سِفْرِ التَّكْوِينِ إِثْبَاتَ وَجُودِ اللَّهِ، قَبْلَ الحَدِيثِ عَنْ

عَمِلَ اللهُ. بَلْ كَانَ وُجُودُ اللهِ مُسَلِّمًا بِهِ، لِأَنَّ كُلَّ مَا جَاءَ فِي الْبِدَايَةِ هُوَ: "فِي الْبَدْءِ خَلَقَ اللهُ". وَيَعْتَقِدُ الْبَعْضُ أَنَّ هَذِهِ ضَرْبَةٌ قَاضِيَةٌ لِعِلْمِ الدَّفَاعِيَّاتِ، قَائِلِينَ إِنَّنَا يَجِبُ أَلَّا نُحَاوِلَ حَتَّى أَنْ نُثَبِّتَ وُجُودَ اللهِ، لِأَنَّ الْكِتَابَ الْمُقَدَّسَ لَمْ يُحَاوِلْ إِثْبَاتَ وُجُودِ اللهِ، لِكِنَّهُ يُسَلِّمُ بِوُجُودِ اللهِ. وَرَدِّي عَلَى ذَلِكَ، وَرَدُّ الْقَدِيسِ ثُومَا أَيْضًا، هُوَ أَنَّ مُحَاوَلَةَ الْكِتَابِ الْمُقَدَّسِ إِثْبَاتَ وُجُودِ اللهِ تُشْبِهُ مُحَاوَلَةَ بَيْعِ الْمَاءِ فِي حَارَةِ السَّقَايِينَ. فَهَذَا غَيْرُ ضَرُورِيٍّ تَمَامًا، لِأَنَّهُ قَبْلَ كِتَابَةِ آيَةِ كَلِمَةٍ فِي الْكِتَابِ الْمُقَدَّسِ، وَمُنْذُ يَوْمِ الْخَلْقِ، أَثْبَتَ إِلَهُ الْكِتَابِ الْمُقَدَّسِ وُجُودَهُ بِشَكْلِ قَاطِعٍ مِنْ خِلَالِ الطَّبِيعَةِ. وَلِذَا، فَحِينَ يَقْرَأُ أَحَدُهُمُ الْكِتَابَ الْمُقَدَّسَ، يَتَعَلَّمُ عَنِ اللهِ قَدْرًا أَكْبَرَ مِمَّا يُمَكِّنُ تَعَلُّمَهُ بِدِرَاسَةِ الطَّبِيعَةِ، أَوْ يَقْرَأُ النَّاسُ الْكِتَابَ الْمُقَدَّسَ بَعْدَ تَلْقِيهِمْ بِالْفِعْلِ الْإِعْلَانِ الْعَامِّ عَنِ اللهِ الَّذِي يُعْطِينَا إِيَّاهُ فِي الطَّبِيعَةِ. إِذَنْ، لَا يَحْتَاجُ اللهُ أَنْ يُثَبِّتَ وُجُودَهُ مَرَّتَيْنِ، إِنْ جَازَ التَّعْبِيرُ. فَقَدْ أَعْلَنَ عَن دَاتِهِ بِالْفِعْلِ لِكُلِّ إِنْسَانٍ قَبْلَ أَنْ يَتِمَّكَنَ مِنَ الْقِرَاءَةِ، مِنْ خِلَالِ قِرَاءَةِ الطَّبِيعَةِ. إِذَنْ، قَالَ أَوْغُسْطِينُوسُ إِنَّ وُجُودَ اللهِ مُثَبَّتٌ مِنْ خِلَالِ الطَّبِيعَةِ وَالتَّعَمُّعِ عَلَى حَدِّ سَوَاءٍ. وَهَاتَانِ الدَّائِرَتَانِ مِنَ الْبَحْثِ - أَيِ الدِّينِ وَالْعِلْمِ - لَيْسَتَا مُنْفَصِلَتَيْنِ أَوْ مُتَعَارِضَتَيْنِ، لِكِنَّهُمَا فِعْلِيًّا مُتَّفِقَتَانِ مَعًا. وَاحْتِذَاءً بِأَوْغُسْطِينُوسَ، عَلَّمَ الْأَكُوْبِيْنِي مَا يَلِي: أَنَّ كُلَّ حَقٍّ هُوَ حَقٌّ اللهُ، وَكُلُّ الْحَقَائِقِ تَلْتَفِي مَعًا عِنْدَ الْقِمَّةِ. وَإِذَا كَانَ أَمْرٌ مَا صَحِيحًا عِلْمِيًّا، فَلَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ صَحِيحًا لَاهُوتِيًّا أَيْضًا. وَإِذَا كَانَ صَحِيحًا لَاهُوتِيًّا، فَلَا بُدَّ مِنْ أَنْ يَكُونَ صَحِيحًا عِلْمِيًّا أَيْضًا.

هَلْ رَأَيْنَا قَبْلًا أَيَّ نِزَاجٍ بَيْنَ الْمُجْتَمَعِ الْعِلْمِيِّ وَالْكَنِيسَةِ؟ أَجَلْ رَأَيْنَا ذَلِكَ دُونَ شَكِّ، مَثَلًا فِي حَادِثَةِ جَالِيلِيُو، وَمُحَاكَمَةِ الْقِرْدِ فِي تِينِيْسِي. كَمَا نَلَاحِظُ هَذَا النِّزَاجَ الْمُسْتَمِرَّ بَيْنَ مَا يُسَمَّى بِالْبَحْثِ الْعِلْمِيِّ، وَمَا يُسَمَّى بِالْبَحْثِ الْلاهُوتِيِّ. وَإِذَا كَانَ اللهُ يُعْلِنُ عَن دَاتِهِ فِي الطَّبِيعَةِ وَالْكِتَابِ الْمُقَدَّسِ، وَإِذَا كَانَ الْمَرْجِعُ الْأَسَاسِيُّ لِعَالَمِ الْلاهُوتِ هُوَ الْكِتَابُ الْمُقَدَّسُ، وَالْمَرْجِعُ الْأَسَاسِيُّ لِعَالَمِ الْفِيْزِيَاءِ أَوْ الْفَلَكِ أَوْ الْأَحْيَاءِ هُوَ الطَّبِيعَةُ، وَإِذَا كَانَ اللهُ يُعْلِنُ عَن دَاتِهِ مِنْ خِلَالِ هَذَيْنِ الْمَجَالَيْنِ، وَإِذَا كَانَ اللهُ هُوَ إِلَهُ الْحَقِّ، فَبِغِي الطَّرُوفِ الْمِثَالِيَّةِ، لَنْ يَنْشَأَ أَيُّ نِزَاجٍ بَيْنَ الْعِلْمِ وَالدِّينِ، أَوْ بَيْنَ الْمُنْطِقِ وَالْإِيْمَانِ، أَوْ بَيْنَ الطَّبِيعَةِ وَمَا هُوَ فَائِقٌ لِلطَّبِيعَةِ، أَوْ بَيْنَ الطَّبِيعَةِ وَالتَّعَمُّعِ. تِلْكَ هِيَ الْفِكْرَةُ الَّتِي طَرَحَهَا ثُومَا الْأَكُوْبِيْنِي. لِكِنَّهُ أَدْرَكَ أَيْضًا أَنَّنَا لَا نَعِيشُ فِي عَالَمٍ مِثَالِيٍّ. فَثَمَّةُ لَاهُوتِيُونٌ يَقْرَأُونَ الْكِتَابَ الْمُقَدَّسَ، وَيُسَيِّئُونَ فَهَمَّ مَا يَقُولُهُ. فِي الْقَرْنِ السَّادِسَ عَشَرَ، كَانَ الْجَمِيعُ تَقْرِيْبًا يُؤْمِنُونَ بِمَرْكَزِيَّةِ الْأَرْضِ، أَيَّ بَانَ الْأَرْضِ هِيَ مَرْكَزُ الْمَجْمُوعَةِ الشَّمْسِيَّةِ. لَمْ يَكُنْ الْبَابَا وَأَسَاقِفَتُهُ فِي رُومَا وَحَدَهُمْ يُؤْمِنُونَ بِذَلِكَ، بَلْ كَانَ هَذَا أَيْضًا هُوَ إِيْمَانُ مَارْتِنِ لُوْتِرُ وَجُونِ كَالْفَنِّ، الَّذِيْنَ اعْتَبَرَا كُوبَرْنِيكُوسَ عَمِيْلًا لِلشَّيْطَانِ، يُقَوِّضُ مِنْ مُصَدَّقِيَّةِ الْكِتَابِ الْمُقَدَّسِ، لِأَنَّ كُوبَرْنِيكُوسَ لَمْ يَكْتَفِ بِإِثْبَاتِ خَطَأِ النَّظَامِ الْفَلَكِيِّ الْبُطْلَمِيِّ، بَلْ أَثْبَتَ بِشَكْلِ قَاطِعٍ أَيْضًا أَنَّ فَهْمَ الْكَنِيسَةِ لِعِلْمِ الْفَلَكِ فِي هَذَا الشَّانِ خَاطِئٌ. وَهَذَا مِثَالٌ حَيٌّ عَلَى تَقْوِيمِ الْمُجْتَمَعِ الْعِلْمِيِّ لِلْكَنِيسَةِ. غَيْرَ أَنَّهُ لَمْ يَقَوْمِ الْكِتَابُ الْمُقَدَّسُ، بَلْ قَوْمٌ سَوْءٌ فَهَمَ الْكَنِيسَةَ لِلْكِتَابِ الْمُقَدَّسِ، وَأَظْهَرَ أَنَّهُ يُمَكِّنُ لِلَاهُوتِيَّيْنَ أَنْ يَكُونُوا مُخْطِئِينَ فِي دِرَاسَتِهِمْ لِلْكِتَابِ الْمُقَدَّسِ. مِنْ نَاحِيَّةٍ أُخْرَى، هَذَا لَا يَعْنِي أَنَّهُ كَلَّمَا نَشَأَ نِزَاجٌ بَيْنَ الْمُجْتَمَعِ الْعِلْمِيِّ وَالْمُجْتَمَعِ الْكَنِيسِيِّ، يَكُونُ الْلاهُوتِيُونُ هُمُ الْمُخْطِئُونَ. فَإِذَا تَحَدَّثَ

العالم عن وجود الأشياء من العدم، فكلامه لن يكون فقط لاهوتاً رديئاً، بل أيضاً علماً رديئاً، لأنه ينطق بهراً. وعندئذٍ، محتاج أن يقول الفيلسوف واللاهوتي: "كلاً، كلاً، كلاً، كلاً، إياك والترويج لملك الأمور هنا". وبالتالي، على الكنيسة أن تقوم العلماء من أن لاخر، مع أن ثائرتهم ثور إذا اقترحنا يوماً وجوب حدوث ذلك. لكن مجدداً، لم يقل الأكويني إنه توجد دائرتان مختلفتان. غير أن المجتمع اليوم يقول: إذا أردت أن تؤمن بالدين، فلا بأس، اذهب إلى منزلك، وادخل غرفتك، وارفع صلواتك، وأنشد ترانيمك. وإذا تسبب لك ذلك بنوع من الإكتفاء العاطفي، فلا بأس. لكن لا نسم ذلك علماً، ولا نسمه معرفة، ولا نسمه حقاً. لك مطلق الحرية أن تحوض هذه التجربة الشخصية التي نسمها بالدين، لكن الأذكى لا يدعون لملك الأمور. أرايتم؟ هذا ما اعترض عليه توما الأكويني قائلاً: "مهلاً! إذا أردت أن تكون عقلياً، وإذا أردت أن تكون علمياً، وإذا أردت حقاً أن تكون ذكياً، فإناك ستساق عن قناعة إلى استنتاج وجود الله، وفقط الجاهل هو من يقول في قلبه ليس إله. إذن، قال الأكويني إن الكتاب المقدس، والعلم أيضاً، يعلنان الحق ذاته، ويؤيد أحدهما الآخر، لأن إعلان الله في الطبيعة هو حق الله تماماً بقدر إعلان الله في الكتاب المقدس. فهما متحدان، مختلفان لكن متحدان. ولهذا أقول عن صديقي العزيز د. شيفر إنه لم يوفق بقوله إن الأكويني فصل بين الإثنين. يفصل المجتمع بين الإثنين. لكن رجاء، لا تُلغوا باللوم في ذلك على توما الأكويني، لأن هذا تحديداً هو ما لم يفعله توما الأكويني. لكنه كان يحاول إظهار التوافق بين المنطق والإيمان، وبين العلم والدين، وبين الطبيعة والتعمة، مؤكداً مجدداً أن كل حق هو حق الله، وكل الحقائق تلتقي معاً عند القمة. ولهذا وضع أوغسطينوس، من قبل الأكويني، هذا التحدي أمام تلاميذه، موصياً إياهم بأن يتعلموا أكبر قدر يمكن تعلمه عن أكبر قدر ممكن من الأمور التي يمكنهم دراستها، لأنهم أينما وجدوا الحق، سيكتشفون حق الله.

الدكتور آر. سي. سبرول هو مؤسس هيئة خدمات ليجونير، وكان أحد رعاة كنيسة القديس أندرو (St. Andrews Chapel) في مدينة سانفورد بولاية فلوريدا، كما كان أول رئيس لكلية الكتاب المقدس للإصلاح (Reformation Bible College) وهو مؤلف أكثر من مائة كتاب، بما في ذلك "كلنا لاهوتيون" و"أدهشني الألم".